دعـــوى الجاهلية أو الكلمة المنتنة
في رأي الإمام عبد الحميد بن باديس

تحقيق أ . محمد الصالح رمضان*

عن أبي عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: كنا مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم في غزاة، فكسع رجل من المهاجرين

---

* من كتاب "*من هدي النبوة*" للإمام عبد الحميد بن باديس (جمع وتصنيف ومراجعة وتعليق وتقديم الأستاذ محمد الصالح رمضان).

رجلا من الأنصار. فقال الأنصاري: يا للأنصار. وقال المهاجري: ياللمهاجرين. فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: **"ما بال دعوى الجاهلية"** ؟ قالوا يارسول الله : كسع رجل من المهاجرين رجلا من الأنصار، فقال: **"دعوها فإنها منتنة"** رواه الشيخان وغيرهما.

الألفـــاظ

"كسعه": ضرب دبره بيده أو صدر قدمه. "رجل...رجلا" : كان الرجلان من الموالي، "يا للأنصار". "ياللمهاجرين": استغاثة من كل بقومه ومواليه لينصروه على الآخر. "دعوى الجاهلية": الدعاء الذي كان يدعو به أهل الجاهلية بنعرة العصبية لإثارة الحمية، يدعو الرجل قومه لينصروه ولو على الباطل. "دعوها": اتركوها. "منتنة" : مكروهة في العقل والدين ككراهة الشيء المنتن في الشم. ومفرقة الجمع كما يفرق النتن المجتمعين.

المعـــنى

كان الرجل في الجاهلية ـ إذا نزل به أمر ـ استنصر بقبيلته، وتعضد بهم، ودعاهم إلى معونته ونصرته، بما بينه وبينهم من عصبية القبيلة، فتثور حميتهم فيندفعون إلى مؤازرته، فيؤيدونه ظالما أو مظلوما: فإذا كان ظالما زادوا في ظلمه، وإن كان مظلوما لم ينتهوا عند حد في الانتقام له من ظالمه.

فلما جاء الإسلام أبطل الانتصار بالعصبية، والتعضد على الانتقام بالقبيلة، وجعل الحكم بالقضاء الشرعي والتوصل إليه بالبينات والحكام.

ولو أن ذلك المكسوع كان ممن تأدب بالإسلام، وتغلغلت روح الإسلام في قلبه... لكان دعا بدعوى الإسلام فقال: يا مسلمون،

قد ضربني هذا، وأقام عليه البينة وساقه إلى النبي صلى الله عليه وسلم، ليقتص له منه.

ولما لم يكن كذلك، وكانت الروح الجاهلية ما تزال منها عقابيل في صدره دعا المكسوع بدعوى الجاهلية، وكان صاحبه مثله فقابله بمثلها.

فلما سمع النبي صلى الله عليه وسلم ذلك منهما سأل عن السبب الذي أثار تلك الدعوى فلما عرّفوه بسببها نهى عنها، وحذر منها فأبرزها في أقوى صورة تنفر منها، إبراز للمعقول في صورة المحسوس، لأنه أبلغ في التأثير على السامع فوصفها بأنها منتنة.

الدعويان وأثرهما

دعوى الجاهلية ـ يا بني عمي أو يا قومي أو يا أهل بلدي أو يا أهل وطني ـ انتقموا لي. فإذا دعا بها وقعت التفرقة بين عشيرة وعشيرة أو بين قوم وقوم، أو بين بلد وبلد، أو بين وطن ووطن، وأثارت الحمية في كل واحدة من الناحيتين على الأخرى، ودفعت إلى الإسراف والتعدي، فأوسعت الظلم والشر، وأبقت الإحن والأحقاد والتراث مما يسترسل معه الظلم والفساد في المستقبل.

أما دعوى الإسلام فهي، يا عباد الله أو يا مسلمون، إني ظلمت فأنقذوني أو اشهدوا لي. فإذا دعا بها كانت جامعة لا تفريق فيها، وأهابت بالسامعين كلهم كذات واحدة كلهم ينصرون الحق، فيكفوا الظلم إن كان واقعا على المظلوم في الحال، ويشهدوا بالظلم عند الحاكم ليجرى العدل مجراه.

فأين تلك الآثار من هذه الآثار ؟

ولقد ظهرت آثار الأولى في الأمة العربية في جاهليتها، وظهرت آثار الثانية فيها بعد إسلامها، فأرى الله العباد ـ عيانا جهرة ـ اختلاف الأثرين في أمة واحدة في زمن قريب, وأقام حجته، ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

تفرقـــة وتميـــيز

كل من سعى إلى تحصيل شيء مستعينا بذوي عصبية له لنسبة جنس أو قبيلة أو بلد أو شيخ أو حرفة أو فكرة، غير ناظر إلى أنه على حق أو على باطل ، فقد دعا بدعوة جاهلية، وكل من أجابه فقد شاركه في دعواه.

أما من عرف الحق وتيقن من نفسه الصدق في طلبه واستعان على تحصيله بمن تربطهم به روابط خاصة ولا يأبى أن يعينه عليه من لم يكن في جماعته لأن قصده إلى تحصيل الحق بإعانة أي كان، فهذا لا يكون دعا دعوى الجاهلية، بل دعا دعوى إسلامية، لأنها لم تخرج عن التعاون على الحق، وهو من التعاون على البر والتقوى.

استـــــدلال

ثبت في صحيح مسلم في غزوة حنين... أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: "**أي عباس، ناد أصحاب السمرة**"، فنادى بأعلى صوته: أي أصحاب السمرة؟ وكانت الدعوة: يا معشر الأنصار، يا معشر الأنصار، ثم قصرت على بني الحارث بن الخزرج، فصارت يا بني الحارث بن الخزرج، يا بني الحارث بن الخزرج.

فكانت الدعوة ـ في ذلك اليوم الشديد ـ لمن جمعتهم بيعة الرضوان، وهم أهل السمرة، ثم لمن جمعهم اسم الأنصار، ثم جمعهم اسم أب، وكان ذلك كله حقا لأنه دعوة إلى الحق.

تحـــذير وإرشـــاد

ليحذر المسلم من كل كلمة مفرقة : من كل ما يثير عصبية الباطل، وحمية جاهلية، لا يدعو بها ولا يجيب من دعا إليها، فإن بلاء كثيرا حل بنا وفتنة كثيرة أصابتنا من تلك الكلمات المفرقة.

ولتكن دعوته ـإذا دعاـ بالكلمات الجامعة التي تشعر بالأخوة العامة، وتبعث على القيام بالواجب، بأيد متشابكة، وقلوب متحدة، حتى إذا دعا جماعة خاصة يعلم منه نفعا خاصا في مكان خاص، فليكن بما يفهمهم أنه إلى الحق دعاهم، وعلى القيام به استعان بهم، دون إباية من انضمام كل من ينضم إليهم، فإنه ما توجه قوم إلى نصرة الله ـ ورضا الله قصدهم ـ إلا كان الله معهم.

﴿وَلَيَنْصرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾[1].

1. سورة الحج ،الآية 40.